الفصل الرابع

تشوهات المجتمع الإسلامى المعاصر

«الداء .. والدواء»

- أبعاد المأزق الثقافى والحضارى الراهن.
- إخفاق الأيديولوجيات المعاصرة.
- منهج الإصلاح ... الأساس الفكرى للنهوض الحضارى.

«المؤمن الضعيف يحتج دائمًا بقدر الله . . . والمؤمن القوى هو قدر الله ـ تعالى ـ فى أرضه . . . ينفذ الله به مشيئته».

(شاعر وفيلسوف الإسلام «محمد إقبال»)

«. . . كان المجتمع الإسلامى فى عصر «الفارابى» يخلق أفكارًا . . . . وعلى عَهْد «ابن رُشد» كان يُبلغُها إلى أوروبا . . وبعد «ابن خلدون» لم يَعُدْ قادرًا لا على الخَلْق . . ولا على التبليغ . .»

(المفكر الإسلامى «مالك بن نبى»)

تقديم

. . . عَبْرَ تاريخه الذى يمتد لأكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان، تَعَرَّضَ المجتمع الإسلامى لهزات عنيفة متعددة عبر الاجتياحات الخارجية، التى كان من أشرسها الهجمة الاستعمارية الغربية منذ أواخر القرن الثامن عشر باحتلال عسكرى مباشر بواسطة جيوش أوروبا المسيحية لمختلف مناطق العالم الإسلامى. . هذه الهجمة الغربية الشاملة لم تقف عند حد احتلال الأرض ونهب الثروات، بل استهدفت بالأساس الإطاحة ببناء المجتمع الإسلامى الداخلى بالعمل على تشويه قيمه والتشكيك فى ثوابته وتقاليده بهدف إعادة بنائه على نحو يُفْقده استقلاله وقدرته على المناورة لضمان تهميشه وتبعيته. فقد مثّلت هجمة العَلْمَنَة الغربية أكبر تحد للإسلام ومجتمعه، تَعرَّض معها بنيانه لأشد الأخطار من خلال استخدام عنف الدولة التحديثية لسلب المجتمع العربى الإسلامى قواه الداخلية، والوقوف بالمرصاد أمام أى محاولات تحديث تعتمد المنهج العربى الإسلامى الأصيل التى يستعيد معها المجتمع الإسلامى حيويته وقدرته على التأثير فى مواجهة التحديات التى تستهدف وجوده. هذه التحديات المتمثلة فى الطغيان المتفاقم لحضارة الغرب، وإيقاع العصر بثورته الرهيبة السرعة والسعة فى حجم المعرفة وفى كم الانتاج وما يستتبعه من شراهة الاستهلاك، حتى أضحى العالم وكأنه يعيش انقلابًا كالزلزال فى أسُس الحياة وعلاقات الفكر والاتصال، حيث يجرى تفكك وتَصَدّع البنى الثقافية والاجتماعية والاقتصادية التقليدية التى كانت بمثابة قشرة الحماية والشعور الوهمى بالاطمئنان، لقد أضْحَت كلها وقد أصابتها الشروخ والتشققات فى ظل ضغوط العصر وضرباته المتتالية، فلم تعد العزلة ممكنة بقدر ما لم يعد الاستسلام مقبولاً برغم كل الرهانات الخاسرة. . لأن التاريخ يفرض على الشعوب أن تختار بين التطور أو الاضمحلال.

. . . وإذا كانت الأمة الإسلامية قد تعرضت للسلب والنهب بصور وأشكال عديدة

من جانب حضارة الغرب ـ فإنه فى ظل التيار الجارف لما يُسمى بالعولمة، فإن الأمر لا يقف عند حد الاستيلاء على الأرض والثروات، بل تجاوزه إلى محاولة استلاب الدرع الحضارى وتفريغه من محتواه القيمى والعقيدى. من هنا، فإن التحدى الأهم الذى يواجه الأمة الإسلامية الآن هو كيفية التعايش مع العصر مع الحفاظ فى ذات الوقت على خصوصيتها الثقافية والحضارية. فى هذا الإطار تأتى أهمية وضرورة توفر الشروط الموضوعية لنهوض حضارى إسلامى، مع أهمية إدراك أن الصعوبات المعنوية والتقنية التى تقف فى وجه الحراك الحضارى الإسلامى هى صعوبات جسيمة وهائلة، ومع أن أبواب اليأس ينبغى أن تُغْلَق، إلا أن الإقرار بالواقع هو من الأمور الضرورية؛ لأنه بمثابة المبدأ الذى يُهيئ الأسباب لتغيير هذا الواقع. ويتوجب علينا فى هذا المقام ألا نَغْفَل عن عنصر أساسى فى مسألة «النهضة الحضارية» للعالم الإسلامى، هو أنه فى «الحالة الإسلامية» لا ينبغى التهوين من قدر مفهوم(*) «الأمَّة» فى أية فاعلية تتصل بهذه النهضة.

(*) «... يكتسب مفهوم «الأمة» أهمية خاصة فى المنظور الإسلامى، حيث يشمل تحت مظلته كافة الأنساق المجتمعية بما فيها القومية.. ولا وجود لأمة واحدة وإرادة متسقة فى العالم الإسلامى بعيداً عن الدين الإسلامى.. فالأمة والدين مترادفان.. فالأمة من نتاج الدين، ونسيجها هو «الوسطية الجامعة» الداعية إلى الخير: أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر.. فالأمة الإسلامية كالجسد الواحد بأعضائه المتنوعة المتكاملة دون تطرف وانعزالية. فقد تمكنت «الهوية الإسلامية» على مدى ثلاثة عشر قرناً من الزمان ـ حتى سقوط الدولة العثمانية ـ ليس فقط من تحقيق التعايش والتجاور الآمن بين أقوام ولغات شتى.. بل أبدعت فى التوظيف الإيجابى لذلك التنوع.. فقد أسهمت الحركة الإسلامية المعادية للاستعمار بكثافة فى الحركة القومية، إدراكاً منها أن القومية بذاتها نسق من أنساق الأمة ما لم ترفع راية العلمانية (نموذج حرب التحرير الجزائرية قبل الاستقلال) ـ وعلاوة على ذلك فإن تجزئة الأمة إلى دول قومية لم تتمكن من زحزحة الإسلام عن مكانته كأحد أهم مقومات النسق العقيدى لمجتمعات البلدان الإسلامية المستقلة. ومع ذلك فإن مفهوم «الأمة» قد تعرض لتشويهات جسيمة فى محاولة حصره فى حدود اللغة أو الانتماء العرقى.. مع الزعم بإمكانية فصله عن مفهوم «الدين» بالإضافة إلى محاولات علمنة مفهوم القومية، بل وتشويش مفهوم الدين ذاته ـ بالسعى إلى اختزاله من مفهوم شامل لنظام جامع للحياة مصدره هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلى مجرد علاقة روحية تتعلق بضمير الإنسان لا علاقة له بما يسمى بالأمور الدنيوية، فى إطار تجذر حالة تبعية العالم الإسلامى ـ مادياً ومعنوياً ـ للغرب.....».

«لمزيد من التفاصيل: راجع الدراسة الهامة التى أعدها الدكتور/ السيد عمر ـ بعنوان «حول مفهوم الأمة فى قرن» ضمن حولية «أمتى فى العالم» إصدار مركز الحضارة للدراسات السياسية ـ الكتاب الأول ـ ص١١٢ ـ الناشر مكتبة الشروق الدولية [١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م]. [المؤلف].

. . أما عن دور «الإرث الثقافى» للأمة فى إحداث نهضة حضارية تواكب متطلبات العصر وتحدياته، فإن «صيانة هذا الإرث والإبقاء عليه حيّا ليسا مضمونين. . دون الإرتقاء بالوعى والجهد والتنظيم إلى مستوى الحضارة الراهنة» كما يقول الدكتور «برهان غليون»[١٣٢] . . . **وإذا كان العالم الإسلامى لم يزل يعانى أثر الصدمة الناجمة عن تحدى الاستعمار. . والفشل فى مواجهة ما تفرضه الحضارة الغربية من معضلات، فإن أية حركة للتغيير والإصلاح تستهدف المجتمعات الإسلامية لا بد لها من إعادة النظر فى كيفية بلورة الأسس الدينية «التجديد الدينى» الذى يأتى على رأس التحديات التى بدون إنجازها لن يتمكن العالم الإسلامى من استعادة تحرره الفعلى ومواجهة الإشكاليات المثارة فى نطاق التاريخ الإنسانى المعاصر. فالمدخل الذى يمكن للمسلمين من خلاله الولوج للإلهام بدور مؤثر فى حضارة العصر. . يتمثل فى الأصول الأخلاقية للحضارة الإسلامية التى تقف موقف الرفض من ممارسات الاستغلال والقهر ونهب الثروات، والخضوع لمن يحاولون أن يجعلوا من العلم سلعة أو سلاحًا لابتزاز الآخرين. . لأن إدماج هذه الأخلاقيات بقوة فى التكوين الحضارى العالمى الراهن سوف يرجح كفة الإسلام فى ميزان الخير والسلام لصالح الإنسانية كلها. . .**

لكن يجب أن نشير إلى أن هناك من يدعون إلى التمسك بهذه الأخلاقيات من جانب بعض المفكرين الغربيين؛ لهذا فإن أى دور إسلامى مستقبلى فى حياة العالم وتطوره لن يتم إلا بالعمل على إعادة بناء عوالم الإسلام الذاتية. . فالتجربة المبدعة الخلاقة الجاذبة هى وحدها الجديرة بأن تكون موضع نظر وتقدير ومن ثم التأثير ـ فى الغير ـ ولن يتأتى ذلك بدون التمتع بالقوة الثقافية والحضارة الذاتية التى تأذن للمسلمين بأداء دور فاعل فى التاريخ الحضارى الآتى.

. . . وفى هذا الفصل، نشير بإيجاز إلى أبعاد المأزق الثقافى والحضارى الراهن من جانب. . . وإلى إفلاس كافة الأيديولوچيات المعاصرة من جانب آخر ـ على أنها «أعراض الداء». . . ثم نعرض لمنهج الإصلاح الفكرى وقيمه العُليا المتمثلة فى «استلهام الهدْى النبوى» باعتباره «الدواء» اللازم لشفاء الأمة والنهوض بها ـ وذلك فى إطار مباحث ثلاثة متتالية:

المبحث الأول: أبعاد المأزق الثقافى والحضارى الراهن

● . . . يواجه العالم العربى والإسلامى مأزقًا وجوديًا يتمثل فى «الهوة الواسعة» التى تفصل قيم ثقافته الثرية المتفردة عن واقعه الحضارى المؤلم، الذى يذهب إلى حد المأساة. . بتراجعه المشهود فى شتى مجالات الحياة. وتبدو ملامح الأزمة الراهنة من جراء التناقض القائم بين الإيمان بالثقافة والتطلع إلى الحضارة. . هذا التناقض تسبب فى انشطاره إلى شظايا متناثرة. . فالمسألة الثقافية هى القضية الأساسية التى يحتدم حولها الصراع والجدال بين نخبه المثقفة التى ترى فى الثقافة أداة التغيير الرئيسة لاحتوائها على القيم الكبرى التى تمثل مصدر الإلهام لسلوكيات الجماعة وتشكل رؤاها الفكرية والسياسية. فقد أدى الصراع أو التناقض القائم بين دعاة التقليد والداعين للحداثة إلى تعدد وتعارض المواقف والآراء بين من ينكر على الثقافة الإسلامية احتواءها على قيم التقدم والتغيير. . وبين من يرى عكس ذلك تمامًا. بل تصاعدت حدة التعارض لتصل دعوة فريق إلى تجاوز هذه الثقافة وتهميشها. . ومطالبة الفريق الآخر بإحيائها وتدعيم مركزها لتتمكن من مواجهة الطوفان القادم من الغرب. . فى ظل هذه التوجهات أضحى الموقف من الإسلام محور اهتمام التيار العلمانى. . بينما أضحى الموقف من العلمانية محور تفكير التيار الإسلامى، وبات الخيار الذى يواجه تيارات الفكر والسياسة فى عالمنا العربى والإسلامى يدور حول «الذات والهوية» من حيث قبول الغرب أو رفضه ـ وللأسف ـ دون فهمه أو دراسته. . فإما الانعزال أو الاندماج فى حضارة العصر. لهذا لم تتمكن المجتمعات العربية والإسلامية من تجاوز هذا الصراع الفكرى، أو تحقيق تقدم ملموس بشأن الخروج من حالة الاستقطاب الراهنة، ودائرته المفرغة التى تؤدى إلى مزيد من المعارك الوهمية وبالتالى مزيد من التصدع والانشقاق بين التيارين الدينى والعلمانى، فى ظل ضعف وغياب «التيار الوسطى» القادر على فك الاشتباك بين الجانبين.

● . . . وإذا نظرنا إلى جوهر «الثقافة الإسلامية» . . نجدها بريئة مما يحدث باسمها من تشدد أو صدام، لأنها تحمل قيم ومثاليات الفكر الإسلامى ـ فعلى الرغم من كونها معبرة عن قيم دينية . . إلا أنها ثقافة متفتحة لا تعرف التعصب والانغلاق الذى تعرفه غيرها من الثقافات، فهى تقوم على مبادئ العدالة والمساواة بين الناس، فلا فضل لأحد على غيره إلاَّ بمقدار ما يقدمه من عمل نافع، الأمر الذى مكنها من تحقيق التوازن الدقيق بين تطلعات الفرد ومصلحة الجماعة . . هذا التوازن هو الذى زودها بقدر هائل من المسئولية تجاه من ينضوى تحت لوائها مسلمًا كان أم غير مسلم ـ فهى ثقافة لا تعرف الطائفية بالتشيع لطائفة دون أخرى . . ولا تعرف الطبقية بسيادة طبقة على ما دونها من الطبقات ـ انطلاقًا من مبدأ التسامح الإسلامى الراسخ . . وإذا كانت الثقافة الإسلامية قد أصابها التراجع منذ القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) مع بداية تدهور الحضارة الإسلامية على مدى القرون الثمانية التالية . . هذا التدهور الذى يعود فى حقيقته لأسباب خارجية وداخلية ـ نشير إليها بإيجاز شديد ـ **فعلى الصعيد الخارجى:** تعرض العالم الإسلامى لعملية «إنهاك حضارى» متواصلة بسبب الهجمات الوحشية من جانب الصليبيين والمغول على جناحه الشرقى . . ومن جانب القوى المسيحية البربرية التى اجتاحت شبه جزيرة أيبريا (بلاد الأندلس) التى تمثل جناحه الغربى . . وما أدت إليه هذه الهجمات من تدمير جانب كبير من تراث الإسلام الفكرى . . ثم تدمير أغلب ما تبقى منه بسبب القلاقل والصراعات على السلطة . . وما تبقى منه كان أقل القليل الذى تعرض بدوره لنهب معظمه من جانب الرحالة والمستشرقين القادمين من الغرب مع مطلع العصر الحديث.

● . . . **وعلى الصعيد الداخلى:** أدى استبداد الحكام والسلاطين، والصراع على السلطة إلى إجهاض الكثير من جهود البناء والإصلاح . . فضلاً عن انهيار القيم والأخلاق النابعة من حقيقة الإسلام . . وأدى «نظام الجباية» إلى تلاشى القدرة على تراكم فائض رأس المال اللازم لنشوء طبقة الصناع والمقاولين والتجار التى تقود التطور والتغيير كما حدث فى الغرب الأوروبى. بينما أدى «الجمود الدينى» والتخلى عن الاجتهاد بسبب غلبة التيار المحافظ، وضعف التيار العقلانى إلى تراجع دور العلماء، ووقوفهم موقف المداهنة من السلطان ـ بعد أن كان موقفهم يتمثل فى الحذر والمراقبة . . بل والمحاسبة فى بعض الأحيان . . هذا الموقف الأخير الذى كان يميز عصور الازدهار.

. . . وأدى التراجع من جانب العلماء إلى انحطاط مستواهم الفكرى ليتدنى إلى مستوى العامة ـ بعد أن توقف الجهد العلمى عند حدود الجمع والتصنيف والتدوين والتنقيح وإضافة الهوامش للمتون . . وما كاد القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) يبدأ حتى تم القضاء على كل فكر مبتكر . . وزحف الجمود على مختلف نواحى الحياة . . وحلَّ التقليد محل الاجتهاد والتجديد . لقد تضافرت كل هذه العوامل فيما بينها ـ فكانت إيذانًا بانتقال المجتمع الإسلامى إلى طور التدهور والانحلال . . والدخول فى سُبَات عميق لم يوقظه منه إلاَّ هدير مدافع الفرنسيين على مصر والشام، إيذانًا ببداية عصر جديد يعلن عن الهيمنة الثقافية والحضارية للغرب الأوروبى .

● . . . وإذا كانت الثقافة الإسلامية قد تعرضت لعملية تشويه مزدوجة ـ من جانب المنتمين إليها فى الداخل والمعادين لها فى الخارج . . ففى الداخل وصل الانغماس فى الشكليات ورفض كل جديد إلى حد أن صار كل «إبداع بدعة» والوقوف عقبة أمام كل اجتهاد من جانب هؤلاء الفقهاء الذين نصَّبوا أنفسهم ـ بشكل أو بآخر ـ أوصياء على الدين . . فنبذوا التفكير، وقاوموا الاجتهادات الفكرية التى تعمل على تكييف المعطيات التشريعية مع مقتضيات التطورات المجتمعية . . بسبب طغيان الشكل والتقليد . . ومع تأكيد غلبة الغرب عسكريًا وحضاريًا ـ أدى هذا الجمود إلى عدم صمود الثقافة الإسلامية فى مواجهة التشويه الجديد القادم من الخارج على نطاق واسع . . هذا فى الوقت الذى تعرضت فيه أكبر إمبراطورية إسلامية (الدولة العثمانية) للتحلل التدريجى منذ نهاية القرن الثامن عشر . . . إلى أن تناثرت أشلاؤها فى كل الاتجاهات مع بداية القرن العشرين . وأدت الغلبة الغربية إلى فقدان النظم الثقافية والاقتصادية الموروثة فى العالم الإسلامى لفاعليتها وتأثيرها فى مواجهة هيمنة النظم الوافدة .

. . هذا وقد عمدت السياسات الغربية إلى استخدام أدواتها المتمثلة فى **«التبشير ـ الاستشراق ـ الاستعمار»** على مدى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر إلى خلق القناعة بضرورة إعادة تقديم «التراث العربى ـ الإسلامى» من منظور غربى جديد يقوم على أساس اتهام «الثقافة الإسلامية» أنها السبب الرئيس فى تخلف العرب والمسلمين . . وترسيخ القناعة بأن الخروج من المأزق الثقافى والحضارى لن يتم إلا عن طريق التخلص من هذه الثقافة ورفض الانتماء لها . . ثم تتوالى الضغوط وتتزايد من جانب

«الغرب الأوروبى ـ الأمريكى» فى الوقت الراهن يهدف إلى تهميش أى دور للعرب والمسلمين . . بل ومحاولة اقتلاعهم من الجذور . . **لتصل هذه الضغوط إلى ذروتها من خلال الترويج لظاهرة «العولمة» وسيادة «النموذج الغربى» الذى يروِّج مُنظروه أن العالم بأسره «مجال حيوى» للغرب الذى يشغل مركز «القلب الحضارى» وله الحق فى الهيمنة على سائر الأطراف ـ كما يدَّعون.**

. . . أما عن أسباب تراجع العالم العربى والإسلامى وفشل تجارب نهضته فى العصر الحديث نقدم نموذجًا لرائد من رواد النهضة الإسلامية هو الأمير(*) **«شكيب أرسلان»** الذى يرى أن سبب التخلف هو افتقار المسلمين للعلم ـ وهو ما يوافقه عليه أغلب رواد اليقظة الإسلامية ـ وأن الإيمان العميق بالعقيدة الإسلامية الداعية إلى الوحدة والثائرة على الجهل والبدع والخرافات، والمناهضة للظلم، كان الدافع إلى قيام دولة العرب المسلمين وتوسعها، أما تخلف وانحطاط المسلمين فهو نتاج فقدان ذلك الإيمان، وبالتالى فقدان العلم والقوة. إن شخصية الأمير أرسلان[١٣٤] الذى عايش الهزائم والانتصارات وعصر الانحطاط والنهضة، يمثل التيار النهضوى فى مواجهة التحدى الغربى. فقد كَرَّس كتاباته لإثبات قدرة الإسلام على النهوض، وقدرة العرب على التصدى للتآمر والعدوان من جانب الغرب. فعملية التحدى بين الإسلام والعرب من جهة، وبين الغرب من جهة أخرى رسمت معالم فكر النهضة الذى تطور رغم ظروف التجزئة الإقليمية والاجتماعية. لذلك تحولت حركة الإصلاح الإسلامى إلى حركة ربطت بين الانحلال السياسى والانحلال الدينى. وعلى هذا الصعيد شَنَّ الأمير أرسلان حملته المناهضة للغرب ومزاعمه الحضارية والمدنية، فقام الاستعمار الفرنسى بمصادرة كتبه ومؤلفاته. أما كتابه الشهير **«لماذا تأخر المسلمون، ولماذا تقدم غيرهم؟»** فإنه بمثابة ثورة على عالَمَىْ الإسلام والغرب على السواء، ثورة على الغرب لعدوانيته وأكاذيبه وتسلطه . . . وثورة على عالم الإسلام لضعفه وتفككه وتخاذله!!!!

(*) «شكيب أرسلان» أديب وسياسى ومؤرخ . . من كبار كتاب النهضة العربية والإسلامية . . ولد فى الشويفات بلبنان . . وفيها دُفن عام ١٩٤٦ ـ تم وصفه بأمير البيان ـ تنقل على مدى سنوات حياته للإقامة فى بلدان عربية وأوروبية: حيث عاش فى القاهرة ودمشق وبرلين، واستمرت إقامته فى جنيف بسويسرا خمسة وعشرين عامًا . . كما زار أمريكا وإسبانيا ـ أصدر مجلة باللغة الفرنسية بعنوان «الأمة العربية ـ La Nation Arabe» من أهم مؤلفاته: لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟ . . و «حاضر العالم الإسلامى». [المؤلف].

يقول الأمير شكيب أرسلان فى إجابته على إمكانية تقدم المسلمين فى كتابه «لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟»[١٣٥]: «. . . المسلمون يمكنهم إذا رأوا بعث العزائم وعملوا بما حرضهم عليه كتابهم (القرآن الكريم) أن يبلغوا مبالغ الأوروبيين والأمريكيين واليابانيين من العلم والارتقاء، وأن يبقوا على إسلامهم كما بقى أولئك على أديانهم، بل هم أولى بذلك وأحرى، فإن أولئك رجال ونحن رجال، وإنما الذى يعوزنا الأعمال، وإنما الذى يضرنا هو التشاؤم والاستخذاء وانقطاع الآمال. فلننفض غبار اليأس ولنتقدم إلى الأمام، ولنعلم أننا بالغو كل أمنية بالعمل والدأب والإقدام، وتحقيق شروط الإيمان التى فى القرآن: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. . .».

. . . إن الإيمان الصحيح ـ وفقًا للمفهوم الإسلامى الصحيح ـ يستتبع حتمًا أن تسعى الأمة الإسلامية إلى حيازة كل وسائل القوة والتمكن المتعلقة بالإنجازات المادية والعلمية بشتى أنواعها، وإلاَّ فهى مقصرة فى دينها ذاته. فليس الوضع الصحيح للأمور أن يكون الإيمان بديلاً من وسائل القوة، ولا أن تكون وسائل القوة بديلاً عن الإيمان. إنما تكون الأمَّة فى وضعها الأمثل حين تكون مؤمنة قوية فى ذات الوقت، لا مؤمنة ضعيفة، ولا قوية كافرة، فكلاهما اختلال لا يرضى به الله. من هنا، فإن التفسير الإسلامى للتاريخ[١٣٦] لا يُحَابى الأمة الإسلامية حين تنحرف عن الطريق، بل يسجل عليها انحرافها. ويبين كيف جرت عليها السنَن الربانية التى لا تجامل ولا تحابى، ويبين كيف أنها حين اشْتَدّ انحرافها صارت أسوأ من الأمم الجاهلية المتمكنة فى الأرض وفقًا للسنَن الربانية، فأصبحت ـ كما هو واقعها اليوم ـ غثاء كالسيل، تتداعى عليها الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. فالمعيار الإسلامى لا يعرف تعصبًا ولا محاباة.

. . . لقد تعرَّضت المنطقة العربية وباقى بلدان العالم الإسلامى لنكبة الغزو الأوروبى الاستعمارى، وباتت فى معظمها تحت سيطرته فى ظل عوامل الضعف والانحلال التى دبت فى أوصال الإمبراطورية العثمانية منذ أواخر القرن السابع عشر، وعلى وجه التحديد عقب فشل الأتراك العثمانيين فى حصار ڤيينا سنة ١٦٨٣ ميلادية حيث توالت بعدها الهزائم والانكسارات. ومارس الغرب الأوروبى عمليات الإخضاع السياسى بالقوة العسكرية الباطشة، والتشويه الثقافى عن طريق الاستشراق

والتبشير، وتلا ذلك عمليات النهب الاقتصادى المنظم ببشاعة منقطعة النظير، ومنذ ذلك الحين وإلى الآن ـ على مدى قرنين من الزمان ـ يعيش العالم العربى الإسلامى أزمته الحضارية الراهنة التى لم يتمكن من تجاوزها بسلام. لقد «افتقدت الشخصية المسلمة[١٣٧] اليوم الكثير من فعاليتها ومنهجيتها وصوابها، وانحسر شهودها الحضارى، وتوقفت عن السير فى الأرض، والتبصر بالقوانين التى تحكم حركة الحياة والأحياء، وبذلك تكررت أخطاؤها، وتَكَرَّسَ تخلفها، وعجزت عن التقويم والمراجعة، ومعرفة أسباب القصور، وتحديد مواطن الخلل والتقصير، فأصبح موقعها خارج التاريخ، والواقع المشهود، والمستقبل المأمول . . .». **فالأزمة الحضارية التى تعانى منها أمة الإسلام اليوم هى أزمة فكر بالدرجة الأولى، ورؤيتنا للخروج منها لن تكون إلا من خلال الحوار بين مختلف أطراف قوى وعناصر الأمة الفاعلة بهدف تفعيل قيم الإسلام الأساسية فى حياة أبنائها بعيدًا عن حالة الانشطار الثقافى بمزيد من الفهم والعلم للاتفاق على كلمة سواء تعيد للأمة مكانتها الثقافية والحضارية.**

. . . يوضح المستشرق الأنجلو أمريكى «برنارد لويس» فى مقدمة كتابه «أين مكمن الخطأ؟[١٣٨] What went wrong?»: «أن الكثيرين فى العالم الإسلامى أخذوا يسألون هذا السؤال لفترة طويلة. . . أين مكمن الخطأ؟، هذا السؤال الذى جاء أساسًا نتيجة المواجهة مع الغرب، بعد أن أدركوا أن الأمور فى مجتمعاتهم ليست على ما يرام وفى حقيقة الأمر هناك سبب وجيه للتساؤل والقلق. . . بل والغضب كذلك. . . **لأن العالم الإسلامى ظل ولقرون طويلة يحتل المقدمة فى الحضارة الإنسانية والإنجازات البشرية، ولأن المسلمين كانوا دائمًا على يقين بأن هناك قاسمًا مشتركًا بين الإسلام والحضارة. . .». هذه هى الحقيقة ـ فهل نصحح علاقتنا مع أنفسنا ومع الآخرين؟!!**

* * *

المبحث الثانى: إخفاق الأيديولوچيات المعاصرة

. . . يؤكد جوهر رسالة الإسلام ومنهجه على إنسانية الإنسان عن طريق إقامة ما يلائمه من نظم سياسية واقتصادية واجتماعية وتعليمية وتربوية متكاملة على أساس من الأخلاق الفاضلة التى تمهد له سبيل الحياة وترشده إلى كيفية التعامل مع الوجود من حوله بما يلائمه وما يستجد به ويفرضه من متغيرات. لقد انفرد الإسلام منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان بتقديم «صيغة حضارية لإنقاذ البشرية مما تعانيه من مشاكل وأزمات، مادية وروحية على حَدٍّ سواء، فشريعته تتميز بالتكامل والشمول، فهو يجمع بين ثبات الأصول المتمثلة فى «القرآن الكريم وسُنَّة الرسول المطهرة» والتغَيُّر الذى يشير إلى اختلاف الاجتهادات وتنوع التطبيقات فى حدود الثوابت الإلهية وعدم التعارض مع الثابت من أصوله الدينية. كما يوازن الإسلام بين المصالح المتضاربة فيوفق بين العام والخاص بما يتناسب مع متطلبات الإنسان المادية وأشواقه الروحية. وتقوم المسئولية لديه على أساس من رقابة الضمير الداخلية قبل عقوبة القانون الخارجية، بل نجد شريعة الإسلام لا تفصل بين مضامين السياسة والاجتماع والاقتصاد عن مضمون الاعتقاد الذى تقوم به الحياة؛ لأنها تستهدف إرساء قواعد التآخى بين بنى الإنسان ليتعاونوا فيما بينهم على أساس من العلم النافع الذى تنمو به الموارد وتعلو به القدرات. والدليل على ذلك أن «حضارة الإسلام» قدمت فى عصورها الزاهية النموذج الذى يرفض القهر والاستغلال ونهب الثروات، واستخدام العلم كسلعة أو سلاح لإذلال الضعفاء، بل قامت على «دعائم أربعة»[١٣٩] جعلتها صرحًا حضاريًا مُشْرقًا لحضارة الإنسان عبر ما مضى من أزمان فى علاقتها بالخالق والإنسان والكون والعلْم.

● **الأولى**: أنها حضارة تقوم على أساس من «الربانية» باعتراف المخلوق وإقراره بالعبودية لرب الكون الذى خلقه وأبدعه.

• **الثانية:** تقوم حضارة الإسلام على مبدأ «الإخاء والإنصاف» فى علاقة الإنسان بأخيه الإنسان دون تسلط أو استعلاء بعد تحريره من أسْر الشرور والمطامع والأهواء.

• **الثالثة:** تعتمد النظرة الإنسانية الشمولية للكون، المسالمة فى التعامل معه. فعملية النمو والتقدم تأخذ طريقها بعيداً عن تدمير البيئة، كما تفعل الحضارة الغربية فى ممارساتها البيئية الخطرة، بل بالتوائم معها وحمايتها لصالح جميع المخلوقات، وفى مقدمتها الإنسان.

• **الرابعة:** أبدعت حضارة الإسلام «المنهج العلمى التجريبى» فى التعامل مع متغيرات الحياة وما تفرضه من تطورات، بعد أن تمكن «الفكر الإسلامى» من صهر ما قدمته الحضارات السابقة من أفكار وعلوم صالحة، والتى تندرج فى إطار القيم الراسخة لشريعة الإسلام.

لهذا يتطلع المفكرون والمصلحون المنصفون اليوم ـ فى كافة أنحاء المعمورة على اختلاف جنسياتهم وانتماءاتهم ـ إلى الإسلام باعتباره الأمل الباقى بعد فشل وإخفاق كل ما عرفوه من أيديولوچيات، وكما يقول الدكتور حامد ربيع[١٤٠]: «... فإن علماء التحليل السياسى يُسلمون ويعلنون صراحة عن أن جميع الأيديولوچيات التى نعيشها إنما تُعْرب عن فشل حقيقى، **فالأيديولوچية الديمقراطية** لم تستطع حتى هذه اللحظة أن تؤصِّل إطارها الفكرى فى مذهب متكامل رغم دعاوى نهاية التاريخ، **والأيديولوچيتان الماركسية والشيوعية** اختلطت كلّ منهما بالأخرى وانتهت بدورها بدرجة أو بأخرى بأن تعلن عن إفلاسها وفشلها فى التطبيق بعد انهيار الاتحاد السوفيتى وما جرَّته من مشاكل وتعقيدات فى المجتمعات التى انبهرت بها، بينما أثبتت **الأيديولوچية النازية** بدورها الفشل الكلى والكامل بعد إشعال حرب عالمية مدمرة. وأنه إزاء فشل الأيديولوچيات القائمة، ما كان يستطيع الفرد إلاّ أن يتجه إلى الأديان...».

فشل التجربة القومية

يرجع السبب الرئيس لفشل القوميين العرب ومشروعهم القومى إلى عدم قدرتهم على الاستفادة من السياق الإسلامى الطبيعى السائد فى المنطقة العربية، وعلى الرغم

من رفعهم راية «**الأصالة**»، إلا أنهم استلهموا المرجعية الغربية فى «إطارها العسكرى» فقط، وانفصلوا عن روافدها الديمقراطية والليبرالية المستحدثة. هذه الانتقائية فى إطار «التغريب» نتج عنها تغييب التاريخ الإسلامى الواقعى الملموس، وتم افتعال التناقض بين القومية والدين، كما لو أن تاريخنا مجرد نسخة باهتة من التاريخ الأوروبى. فالأطروحة القومية العربية تم إفراغها من بداياتها الأولى من السياق التاريخى للواقع العربى الإسلامى، كما أنها لم تتضمن نسق الشورى والديمقراطية، ولم تعمل على استيعاب الخريطة الاجتماعية أو تمثلها فى إطار السعى نحو التقدم. ولم نكن بحاجة إلى استلهام النظرية القومية من التاريخ أو الفكر الغربى؛ لأن سياقنا التاريخى كان بمقدوره إمدادنا بما نحتاجه وعلى نحو مغاير وفى إطارالنهضة. لقد كان «**الإسلام**» هو الذى وَحَّدَ العرب فى المرحلة المبكرة من الدعوة إليه، ولم يكن مجرد عامل مؤقت أنجز للعرب وحدتهم وانتهى الأمر، وإنما ظلَّ الإسلام عنصرًا حاسمًا فى أى «وعى قومى» محتمل. ولأن التوحيد يتلو المغايرة والاختلاف والتنوع بين الشعوب والقبائل، فإن الإسلام يفترض التعددية والحوار كعنصر ضمنى لأية «وحدة قومية». ويشهد التاريخ الاجتماعى والسياسى للمسلمين أن هذه الوحدة تحققت باعتبارها كيانًا ثقافيًا يحترم الخصائص النوعية للبلاد المفتوحة والمقترنة بالازدهار الحضارى حين اعتمدت على الحرية والعقلانية والعدل الاجتماعى. ولكنها انتكست حين اعتمدت الديكتاتورية ومعاداة العقل والظلم الاجتماعى. ويؤكد الدكتور غالى شكرى[١٤١]: «أنه فى لحظات الازدهار كان الإسلام ينبض كالقلب داخل الجسد القومى.. وفى عصور الانحطاط كان التخلف والطغيان والاستغلال يُمَزِّق أواصر الأمة ويفصل الروح عن الجسد. هكذا كان الإسلام «روح القومية» ولم تكن قومية إسلامية لأن الإسلام دين عالمى لكل البشرية.. بل قومية عربية روحها الإسلام الذى يستوعب مكوناتها ومقوماتها مهما تعددت وتنوعت، معترفًا بتعددها وتمايزها وحقوقها المتكافئة، دون قمع أو إكراه».

... هذا هو الوجه الأول فى تعامل الإسلام مع القوميات، أما الوجه الثانى والذى أكد ملامح الوجه الأول فهو تعامل الإسلام مع الفتوحات.. ففى «الفتوحات الإسلامية» حيث اشتملت البلاد المفتوحة على حضارات سابقة، ومنها الحضارات الدينية، فاختلف شكل التفاعل مع العقيدة الجديدة من بلد لآخر. وقد أكسب هذا

التباين طبيعة خاصة للدين الجديد «الإسلام» فى كل بلد. فالبلاد التى سادت فيها المسيحية والإمبراطورية الرومانية اختلفت عن البلاد الوثنية. وقد استجابت «حيوية الإسلام» لهذا التباين واعتبرته جزءاً لا يتجزأ من مقومات **«الأمَّة المسلمة»**. وقد باعدت هذه التباينات بين العروبة والعرْق، ودَعمت مضمونها الثقافى والحضارى المتعدد الينابيع والمسارات المحكومة فى عهود الازدهار والحرية والعقلانية والعدالة والمعرفة، على عكس الحال فى عهود الانكسار والاستبداد والخرافة والظلم. **هذا ما فشل فى الاستفادة منه «القوميون العرب» ففشلت تجربتهم بعد أن قاموا باستبعاد «الإسلام» كعنصر أساسى من عناصر التقدم والنهوض، ولجأوا إلى الغرب يقتبسون منه أفكارهم وتنظيماتهم، فكان ما كان من الفشل والسقوط مع هزيمة تجربة النهضة القومية فى يونيو ١٩٦٧. ثم جاء الغزو العراقى للكويت فى أغسطس ١٩٩٠م ليؤدى بدوره إلى احتلال العراق وتمزقه فى مارس ٢٠٠٣م ـ تتويجًا مأساويًا لهزيمة «الفكرة القومية» التى تبنت المرجعية الغربية، ولم تعتمد «أصالة الإسلام».**

فشل النمط الغربى للتنمية

. . . دَرَجَ العديد من الباحثين على ترديد أسباب عديدة لإخفاق التنمية فى العالم الإسلامى على النمط الغربى، تدور كلها حول أن «العناصر المستوردة» تُمَثِّل تراكمًا للخبرة الغربية التى تم نقلها لتربة غير ملائمة؛ لأن خصائصها تشكلت بخصائص البيئة الغربية، لهذا فإنها تعد دخيلة على الأمة الإسلامية، غريبة عن روحها وتكوينها الفكرى والعقائدى. الأمر الذى أدى فى نهاية المطاف إلى إخفاق تلك العناصر المستوردة وإلى عودة الإسلام. رغم ذلك، فإن هذه الأسباب تعتبر مجرد أسباب جزئية وثانوية؛ لأن السبب الرئيس يتمثل فى القوة المسيطرة للإسلام، ومن ثم فقد كان انتصاره على تلك العناصر المستوردة وليس عودته؛ لأنه لم يغب عن الساحة حتى يعود، وإن بدا الأمر غير ذلك، وعلى حد تعبير الأستاذ «سيد قطب»، حيث يقول: **«والفكرة الأكبر هى التى تنتصر، والنظام الأشمل هو الذى يبقى»**. وتتأكد هذه الحقيقة انطلاقًا من إدراك أن التحديث يتم الآن فى العديد من الدول الإسلامية بمفاهيم إسلامية وليست غربية أو علمانية، وانطلاقًا من إدراك أن الإسلام ينتشر الآن بقوته الذاتية فى أوروبا ذاتها متفوقًا بذلك على مفاهيم العلمانية فى عقر دارها. فالإسلام ليس مجرد

دين، بل إنه أسلوب حياة ونمط تفكير وقيم ثقافية قابلة للتحقيق. فقد أظهر الإسلام عبر القرون قدرة فريدة على تأكيد ذاته ضد القوى الاجتماعية المنافسة. وفى هذا السياق يقول المفكر الغربى تشارلز آدمز[١٤٢]: «أنه على الرغم من قوة واستمرار اتجاهات التحضر والتحديث والتغريب والعلمنة للمجتمعات الإسلامية، فإنها ـ أى هذه الاتجاهات ـ لم تنجح فى إزاحة أو إضعاف الارتباطات الدينية».

. . . ويرى **«مفكرو الإسلام المعاصرون»** أن المخرج الأوفق من إشكالات التنمية على النمط الغربى هو الرجوع للقيم التى يدعو إليها الإسلام. فالتنمية الإسلامية تختلف عن الرؤى الأخرى للتنمية؛ لأن قيم الإسلام تختلف عن القيم الأخرى، داعين للخروج من قيم الفلسفات الأخرى والدخول فى نطاق القيم الإسلامية، هذه القيم تمثل منهجًا متكاملاً، وتتشكل فى إطارها ملامح «نظرية إسلامية للتنمية[١٤٣]» بكافة أبعادها:

أولى هذه القيم: «الكرامة الإنسانية» باعتبارها قيمة يجب أن تؤخذ فى الحسبان، فلا تكون هناك تنمية إلا بحفظ هذه الكرامة الإنسانية. فالإنسان ودوره المتميز كخليفة لله فى الأرض يستوجب معاملته بما يليق بمقام خلافته هذا، فلا يتم إهدار هذه الكرامة فى سبيل تحقيق أعلى معدل للإنتاج أو أقصى ربح.

ثانى هذه القيم: هى قيمة «العدل» بمعناه الاقتصادى والاجتماعى، فلا مجال لاحتكار سلعة أو استغلال ظروف، وإنما تسود العدالة فى كل الأحوال.

ثالث هذه القيم: هى قيمة «العمل» باعتبارها من القيم الضرورية لإنجاح عملية التنمية، فلا مجال إلا لبذل الجهد باعتدال، والكسب الحلال.

رابع هذه القيم: هى قيمة «الإحسان» وما تؤدى إليه من تهيئة نفسية وروحية فيما يُؤَدَّى وفيما يتم القيام به من أعمال فى جميع الأوجه، وفى كافة المجالات.

خامس هذه القيم: هى قيمة «التزكية» لتطهير الكسب الحلال، وتوجه للإنفاق فى أبواب الخير مرضاة لله، سبحانه وتعالى.

فالدين فى المنظور الإسلامى يُمَثِّل منهاجًا شاملاً، الأمر الذى يجعله بمثابة «إطار ملائم» لدفع التنمية بشتى صورها، ذلك لأن التقدم فى ميدان لا يمكن أن يتم إلا إذا صحبه وتوافق معه تقدم فى باقى ميادين الحياة الاجتماعية. فالعقيدة الدينية هى التى

تعطى المجتمع الإرادة، وأنه يتحرك عندما يؤمن بفكرة معينة. . فالإسلام يتحول إلى أعظم قوة تهب الإنسان المسئولية والقدرة على التضحية. وكما يؤكد المفكر الإسلامى «مالك بن نبى»[١٤٤] فى قوله: «إن روح الإسلام هو الذى خلق من عناصر متفرقة كالأنصار والمهاجرين أول مجتمع إسلامى، فقوة التماسك الضرورية للمجتمع الإسلامى موجودة بكل وضوح فى الإسلام». وإذا كان التاريخ هو المعيار الحقيقى لصلاحية الأفكار والأيديولوچيات، فإن تاريخ انتصار «الدعوة الإسلامية» هو دليل قوى على كمال وتفوق «الفكرة الإسلامية».

ففى العالم الإسلامى وعلى الرغم من المتغيرات التى طرأت عليه على مدى القرنين الماضيين من قوة استمرارية عملية «التغريب» و «العلمنة» فى المجتمعات الإسلامية، فإن هذه العمليات لم تنجح فى إضعاف الارتباطات الدينية للغالبية العظمى من أفراد المجتمع، ولم تحدث عَلْمَنة فى عالم الإسلام، حتى فى «تركيا» التى تحول نظامها ـ على المستوى الرسمى ـ منذ فترة مبكرة إلى نظام علمانى؛ لأن الإسلام لم يزل هو الصيغة الأكثر وضوحًا للأفكار والمعايير والقوانين الاجتماعية، كما أن قابلية «الفكرة الإسلامية» للانتشار لا تَنْبُع من فراغ، لكنها تعود إلى عوامل عديدة، منها «القوة الذاتية» الخاصة التى يتسم بها الإسلام، حيث يمثل نظرة شاملة للحياة ويتغلغل فى كل جوانبها، كما أن الاعتقاد السائد هو أن الإسلام على حق خلافًا للقيم الغربية المستوردة التى لم يثبت نجاحها بالتجربة.

وللدين أهمية قصوى فى قيام الحضارات وانهيارها، فالعلامة «ابن خلدون»[١٤٥] يرى أن الدين يعد أمرًا أساسيًا لبناء الدولة وإقامة الحضارة، فهو ـ أى الدين ـ يمثل قوة تماسكية ويعد مصدرًا للقوة السياسية، ويؤسس الروح المعنوية والفضيلة والطاعة المدنية. وعلى خلاف ذلك، فحينما تفسد الممارسات الدينية للجماعة فإنها تفقد قدرًا من قوتها ووحدتها، ولا يبقى لها من قوة سوى قوة العصبية، ومثل هذا الموقف يقود إن عاجلاً أو آجلاً إلى انحدار الجماعة وتفسخها. ومن هنا، فحيث إن الدين يعتبر مصدر الفضيلة الأخلاقية للأمة، والضامن للطاعة المدنية، فإن الدولة تنهض وتسقط بواسطة الدين، ولم يشهد الإسلام على مدى تاريخه ثورة على تعاليمه كما حدث للديانة المسيحية فى القارة الأوروبية، ولم تكن «اليقظة الدينية» التى بدأها الإمام «محمد بن عبد الوهاب» بالأراضى الحجازية إلا إحياء للقيم والتعاليم الإسلامية الأولى، لا قضاء عليها أو إهدارًا لها أو خروجًا على تعاليمها، مثلما كانت حركة

الإصلاح المسيحى للكاثوليكية. فليس الإسلام بحاجة إلى إعادة النظر، وإنما إلى إعمال الفكر والاجتهاد؛ لأنه متجدد على الدوام قابل للتطور بما يتلاءم مع متغيرات الزمان والمكان.

وحول واقع «التراجع الاقتصادى» فى العديد من الدول الإسلامية، يرى المستشرق برنارد لويس[١٤٦]: «أن اتهام الدين الإسلامى بأنه فى صلب طبيعته الجوهرية عدوّ للتقدم الاقتصادى، أمر يصعب التدليل عليه... ويجب البحث عن الأسباب الاجتماعية والثقافية الحقيقية للتخلف الاقتصادى فى البلاد الإسلامية، وهى أسباب متشابكة، يعد التاريخ الإسلامى جزءًا منها، وإلى حد ما تعبيرًا عن هذه المشكلات. ففى العصور الوسيطة فى الإسلام حققت الإمبراطوريات الإسلامية ازدهارًا حقيقيًا فى الحياة الاقتصادية، بينما نجد أن أثيوبيا المسيحية فى الأزمنة المعاصرة متخلفة اقتصاديًا مثل بلاد إسلامية غيرها». ويؤكد لويس قائلاً: «إنه لا يوجد فى النظام الإسلامى ما يعارض التقدم الاقتصادى، رغم أن هناك العديد من الممارسات الاجتماعية والفتاوى الفقهية عند المسلمين، مما يحتاج إعادة نظر بعناية للقضاء على أسباب التخلف الاقتصادى فى الدول الإسلامية...».

... هذا فى الوقت الذى يقول فيه المفكر الاقتصادى الدكتور «جلال أمين»[١٤٧] ـ لقد دفعت أمتنا ثمنًا باهظًا نتيجة غفلة مثقفينا، فقد قبلوا أن توصف أمتهم بالتخلف فى مقابل الحصول على معونات اقتصادية... فانتهى الأمر بأن وصفوا هم وأمتهم بالإرهاب الذى يتعين القضاء عليه. «ويعزو الدكتور عزت بيجوفتش[١٤٨] إخفاق الأيديولوجيات الكبرى فى العالم إلى نظرتها الأحادية الجانب للإنسان والحياة. هذه النظرة التى شطرت العالم إلى شطرين متصادمين، ما بين مادية ملحدة وكاثوليكية مغرقة فى الأسرار، يُنكر كلّ منهما الآخر ويدينه دون أمل فى لقاء بينهما، أمَّا الإسلام كما يُقَدمه «بيجوفتش» فلا يخضع لهذه القسمة الجائرة، حيث يوضح فى رحلته الطويلة من البحث فى أعماق الفلسفات الإنسانية والمذاهب الفكرية والآداب العالمية، والقانون وعلم الأخلاق، ويكشف لنا عن العناصر الدينية الكامنة فى هذه المجالات، تعبيرًا عن الفطرة الإلهية التى أودعها الله فى قلب الإنسان، لهذا فإن الإسلام دين الفطرة. وكما يقول الشاعر الألمانى «جوته» فى بيت الشعر المشهور:

إذا كان الإسلام هو التسليم لله فإننا كلنا نحيا ونموت فى الإسلام

المبحث الثالث : منهج الإصلاح

«الأساس الفكرى للنهوض الحضارى»

أرسل الله ـ تعالى ـ الرسل والأنبياء إلى مختلف الأمم والشعوب فى مختلف العصور. وكان محمد ﷺ خاتم المرسلين وأكثرهم نجاحًا وتوفيقًا فى تحقيق أهداف رسالته، فقد تمكن فى سنوات معدودات من اقتلاع جميع العادات الفاسدة فى جزيرة العرب، وأن يرفعها من انحطاط الشرك والوثنية إلى علياء التوحيد الخالص. يقول العلامة الباكستانى شبلى نعمانى[١٤٩] عن كتابه «سيرة النبى» والهدف من كتابته: «إن هؤلاء الذين ظهروا قبل الرسول محمد ﷺ بعامة كانوا نماذج لفضائل معينة، على سبيل المثال مدرسة المسيح كانت للتحمل والصبر والسلام والتسامح والتواضع، ولا مكان للصفات الرفيعة اللازمة للإدارة والحكم، بينما لا مجال فيما جاء به نوح وموسى للتسامح العام. من أجل ذلك كانت الحاجة إلى قائد جديد فى كل مرحلة من مراحل الإنسانية... ودائمًا كان هناك انتظار لجديد يَكْمُل به الدين. القائد الذى يستطيع أن يرفع سيفه وأن يعيش معتكفًا أيضًا، قائد يستطيع أن يمارس حياة الحاكم والفاتح كما يمارس حياة المسكين. والذى يستطيع أن يحكم الدنيا وتاليًا أسماء الله الحسنى، والذى يستطيع أن يعيش حياة الفقر بالرضا وحياة الغنى بالقلب الكريم. هذا التصوير الحى لكلمات الله هو الذروة العليا فى خلق الله ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]». ويستطرد العلامة الباكستانى قائلاً: «... إلى يوم الدين لن يستطيع أحد أن ينافس المسلمين فى فخرهم بحفظ أدق تفاصيل كل حادث فى حياة الرسول الكريم ﷺ بطريقة دقيقة وواعية، لا يصل إلى مستواها تسجيل حياة أى إنسان آخر من قبل، ولا يمكن أن ننتظرها من بعد». ومن الغريب أنه ليست هناك صورة كاملة لأحد من الأنبياء غير محمد ﷺ، فالصورة الكاملة لباقى الأنبياء غير محفوظة، فمن حياة المسيح التى استمرت ثلاثًا وثلاثين عامًا لا نعرف منها سوى الأحداث المرتبطة بالأعوام الثلاثة

الأخيرة من حياته . . . والمجددون الدينيون فى فارس تعرفهم فقط عن طريق «الشاهنامة»، بينما ضاعت سيرة أنبياء الهند فى القصص والأساطير، والتوراة الموجودة حاليًا هى المصدر الوحيد للقليل الذى نعرفه عن موسى عليه السلام.

لقد اكتملت رسالة الإسلام لتكامل دور الرسول الكريم من «التبليغ» إلى «الإبلاغ». يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ...﴾ [المائدة: ٦٧] و ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [المائدة: ٩٩]. وأدرك الرسول الكريم أن البلاغ لا يُرَاد به مجرد إيصال الرسالة إلى الناس، والوقوف عند مجرد التبليغ؛ لأن هذا التبليغ وكفى لا يكلف جهدًا أو مشقة، إنما الذى يكلف الجهد والمشقة ويقيم أمر الدين هو البلاغ بعد التبليغ، أى الوصول بالرسالة إلى غايتها بإنشاء أمة من المؤمنين الصادقين، وهذه الأمة هى التى يمكن أن يصبح بها الدين حقيقة نافعة للبشر. . . وهل يمكن أن يكون هناك دين له فاعلية دون أن يكون هناك مؤمنون به عاملون على نشره والدعوة له؟ إذن، فلا بد من إنشاء أمَّة الإسلام. هذه الأمَّة لا ينبغى اختزالها فى مجرد كيان سياسى يخدم أهدافًا سياسية، بل لا بد لها من أن تكون بناءً دينيًا اجتماعيًا خُلُقيًا يخدم غايات نابعة من هذا الدين القَيِّم بمعنى (القائم الدائم) لتكون هى آخر أمة قيم تدوم دوام الدهر وتتسع لبنى آدم أجمعين، وتلك كانت الغاية التى أنفق من أجلها محمد رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ثلاث عشرة سنة من عمره ليحققها فى مكة. ولو أن النبى محمدًا اكتفى كغيره من أنبياء الله ورسله بتبليغ الرسالة لما كانت به حاجة إلى جهد ولا نصب؛ لأنه خلال العام الأول من الرسالة كان قد أبلغ الرسالة قبل دخوله ﷺ دار الأرقم التى تعد اللبنة الأولى فى بناء تكوين الأمة المسلمة.

ففى دار الأرقم جمع حوله طائفة طيبة من الأتباع لم يوفق إلى مثلها نبى مرسل قبله. فعيسى عليه السلام مضى إلى ربه مخلفًا وراءه حفنة من الحواريين لا يبلغون نصف الجماعة التى كسبها محمد للإسلام قبل أن يدخل دار الأرقم ويدعو فيها. وموسى عليه السلام لم يصبر حتى يكسب فرعون وآله لرسالته، بل يئس منهم ومن عنادهم واكتفى بقومه من بنى إسرائيل ومضى خارجًا من مصر. وإبراهيم أبو الأنبياء ـ سلام الله عليه ـ لم يكسب لدعوته إلا فئة قليلة من الناس تَفَرَّقت من بعده وتناثرت.

من هنا كان إصرار الرسول الكريم على البلاغ وعدم الاكتفاء بمجرد التبليغ، والبلاغ عنده كان فى تحويل قريش كلها إلى جماعة الإسلام. ومن ثم توجيه الجماعة القرشية المسلمة إلى كسب العرب جميعًا. وكان رسول الله ﷺ يرى فى قريش من المواهب والملكات والخصائص ما هو قمين بأن يعينه على البلاغ الأكبر، وهو دعوة البشر جميعًا إلى دين الله الخاتم وهدايتهم إليه. لكن الغالبية من القرشيين لم تفطن إلى «الغاية الكبرى» التى كان يدعو إليها النبى محمد، وكان الحلف الضخم من الأغنياء والأقوياء الذين تضمهم قريش هو الذى وقف فى سبيل الدعوة، وكانت غاية النبى ﷺ هى تحويل هذا الحلف الضخم إلى قاعدة للإسلام، لكن هذا كان مستحيلاً لأن قادة الحلف أنفسهم لم يروا قط الغايات السامية البعيدة التى تنتظرهم من وراء الاستجابة للدعوة، فوقفوا حيالها جامدين. لكن لا سبيل إلى الاكتفاء بالتبليغ دون البلاغ من جانب الرسول، فبعد محاولة غير موفقة مع سادة الطائف، واتصالات أخرى مع بعض الأحلاف القبلية، كان اللقاء مع أهل يثرب، وإن الإنسان ليعجب من دأب الرسول الكريم على الوصول إلى الغاية العليا وإصراره على إبلاغ دعوته للناس كافة. وإذا كانت الرسالة التى يحملها نبى الإسلام إلى الناس كافة، فرسالته إنسانية شاملة. ليس لها طابع عنصرية أو قومية معينة، ولذلك اتجه بدعوته يبلغها إلى حكام الأرض وملوكها، فكتب إلى كسرى فارس وقيصر الروم ونجاشى الحبشة ومقوقس مصر وغيرهم من الحكام يدعوهم إلى الإسلام.

لقد بنى الرسول الكريم أمة مؤمنة[١٥٠]، وَبَثَّ فى هذه الأمة القرآن الذى أيقظ ضميرها الإنسانى وقيمها الإنسانية، وضرب رسول الله بقوله وفعله المثل للأمة لتقتدى به، وانتصرت أمَّة الإسلام على يديه؛ لأنه علمها موجبات النصر، وأعطاها أخلاقيات النصر من إيمان وتضحية وعزة نفس وترفع عن الدنايا وتمسك بالعدل والفضل والبر والرحمة والخير وتضحية بالنفس فى سبيل الإسلام وأمة الإسلام. وقاد الرسول الكريم أمته بأسلوب جديد لا يشبه فى شىء أساليب رؤساء الدول أو قادة الجماعات الأخرى. لأن أمَّة الإسلام كان ينبغى أن تكون أمة الدنيا كلها، أمة الأمس واليوم والغد. وينبغى أن تكون كذلك، لكنها شغلت نفسها بشكليات بناء الأمة، مع أن المهم هو الحفاظ على روح الأمة وضميرها الحى وقلبها الواعى، وبهذا القلب الواعى تختار من يُسيِّرون أمورها فى حرية وإقناع طالما توفرت فيهم الشروط اللازمة لقيادة أمة مؤمنة.

. . . إن الإنسان الذى ترسم صورته أحاديث الرسول الكريم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ هو الإنسان الذى رأينا نماذجه فى صدر الإسلام، وما أشد حاجتنا إلى ترجمة هذا الهدْى النبوى إلى حياة نابضة. فهذا الهدْى النبوى ليس ماضيًا انقضى، ولكنه شروق متجدد يستوى عنده الماضى والحاضر والآتى، وما أحرانا أن تكون مجتمعاتنا الإسلامية نموذجًا لهذا الهدْى تقدمه للإنسانية فى مسيرتها نحو تحقيق كرامة الإنسان.

فالرسول الكريم يدعو إلى رؤية الإنسان فى وحدته الأولى، فالوجود الإنسانى قائم على أساس «وحدة الإنسان فى تنوعه»، هذا التباين لا يعدو عند الرسول الكريم أن يكون مظهرًا من مظاهر قدرة الله تعالى، فلا عصبية ولاتفرقة ولا تعصبًا. فالمجتمع الإسلامى الأول ضم بلالاً الحبشى وصهيبًا الرومى وسلمان الفارسى بالإضافة للعربى من قريش ومن غيرها من قبائل العرب. لقد انضوى تحت لواء هذا المجتمع الأثرياء والمعدمون، الشيوخ والشباب، الرجال والنساء، هذا المجتمع الإسلامى الأول لا يمكن تقييمه على أساس اللون أو الطبقة، وإنما كان خلاصة للإنسانية كلها وتعبيراً عنها. فالتفاضل في الحياة أمر نسبى، ولا فضل لأحد على غيره إلا بدرجة إيمانه وتقواه ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

. . . لقد قَسَّمَ النبى ﷺ الناس فيما يتصل بدعوته إلى ثلاثة أقسام. فعن أبى موسى الأشعرى[١٥١] رضي الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «إن مثل ما بعثنى به الله ـ عز وجل ـ من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضًا، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا ورعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه بما بعثنى الله به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به» (متفق عليه). فالناس فيما يتصل بدعوة الإسلام ثلاثة أقسام، والعلم الذى جاء به النبى مثل الغيث؛ لأن كلاً منهما سبب الحياة. فالغيث سبب حياة الأبدان، والعلم سبب حياة القلوب. فكما أن الأرضين ثلاثة بالنسبة لقبول الغيث، فالقلوب أيضًا ثلاثة لقبول العلم:

فالأولى: أرض زكية قابلة للشراب والنبات، فإذا أصابها الغيث ارتوت، ومنه يثمر النبت من كل زوج بهيج. فذلك مثل القلب الذكى، فهو يقبل العلم بذكائه وقابل للعلم مثمر لموجبه وفقهه وأسرار معادنه.

والثانية: أرض صلبة قابلة لثبوت ما فيها وحفظه، فهذه تنفع الناس لورودها والسقى والزرع منها. وهى مثل القلب الحافظ للعلم، الذى يحفظه كما سمعه.

أما الثالثة: فهى أرض قيعان لا يستفيد من مائها النبات، ولا تمسك ماء ينتفع منه بشىء. ومثلها مثل القلب الذى لا يقبل العلم والفقه والدراسة، وإنما هو بمنزلة الأرض البور.

فالناس فى موقفهم من هَدْى الرسول الكريم ودعوته إلى الإسلام ثلاثة:

* **الأول:** عالم مُعَلِّم، داع إلى الله على بصيرة، فهذا من ورثة الرسل والأنبياء.

* **الثانى:** حافظ مؤد لما سمعه، فهذا يحمل لغيره ما يتجر به المحمول إليه ويستثمره.

* **أما الثالث:** فلا هذا ولا ذاك، فهو الذى لم يقبل هدى الله ولم يرفع به رأسًا.

هذا الحديث النبوى الشريف اشتمل على تدرج من الأعلى إلى الأدنى فى تصويره لعلاقة الفرد والمجتمع بالعلم. . أى بالأفكار والأشياء. وكأن النبى ﷺ قد أراد من هذا التدرج فى الدرجات الثلاث أن يرمز إلى عصور ثلاثة يمر بها المجتمع الإسلامى، يبدأ تاريخه بمرحلة يتجمد فيها عالم الأفكار، فلا تصبح لديه أدنى فاعلية اجتماعية. لهذا، فإن المجتمع الإسلامى فى عصر الفارابى[١٥٢] كان يخلق أفكارًا، وأنه على عهد ابن رشد كان يبلغها إلى أوروبا، وأنه بعد ابن خلدون لم يعد قادرًا على الخلق ولا على التبليغ. والمجتمع الإسلامى لن يستعيد حيويته إلا باتباع منهج الرسول الكريم، وإحياء قيم شريعة الإسلام فى حياته، ولا يقف عند حدود الحفاظ على العبادات وحدها ـ وهى الحد الأدنى فى حياة أمة الإسلام ـ وإنما تفعيل قيم الإسلام فى الحياة وبذل الجهد فى نشر دعوته، حتى يكون المجتمع المسلم كالأرض المثمرة التى تنبت ثمرها وتحفظ ماءها، وتفيض على غيرها بكل ما فيه من خير ورحمة، فرسول الإسلام ﷺ كان ينظر إلى الوجود نظرة حب يتدبر بها ما فيه من بديع صنع الله. ولم تكن حياته صراعًا مع هذا الوجود أو تحديًا له. إنه بشر من خلق الله، وهذا الكون من خلق الله، فالرسول مُسبِّح بحمد ربه، وهذا الكون مُسبِّح بحمد ربه، والله أعطى الإنسان العقل والفكر وحرية الاختيار، وهذا الكون تحكمه قوانينه، والإنسان خليفة الله على هذه الأرض،

وله خَلَقَها وخَلَقَ السماوات. وعلى هذا لا نجد فى الإسلام ولا فى توجيه الرسول لنا إلاَّ حب الكون والإنسان دون تفرقة بسبب اللون أو العنصر أو الوضع الاجتماعى أو الاقتصادى.

. . . وتختلف نظرة رسول الإسلام والمحبة الودود هذه عن نظرات أخرى رأت فى الكون مجال صراع وعداوة، وصلت إلى حد تدمير مقومات عديدة فى بعض بيئاته، فعلى سبيل المثال يجب النظر إلى ما حدث فى أفريقيا منذ عهد الكشوف الجغرافية فى أواخر القرن الخامس عشر ومطالع القرن السادس عشر، حيث وجد البرتغاليون نحو ما يقرب من أربعين مدينة أقامها العرب المسلمون بين «مقديشيو» فى الشمال «وكلوا» فى الجنوب، كلها تموج بالحضارة والتقدم. وجاءت مع الاستعمار الأوروبى مطامع ضارية تضرب بالمخلب وتنهش بالناب وتُشْعل النيران فى المدن العامرة. وبدلاً من مشاعل الحضارة التى كانت قائمة فى هذه الأجزاء، ارتفعت ألسنة اللهب وغطى دخانها الأسود وجه الحياة. هذه النظرة المدمرة من جانب حضارة الغرب لم تنظر إلى مقومات هذه البيئة نظرة حب ولا مودة، إنما نظرة حقد وكراهية، ونَهْج تخريب ودمار. وإذا قمنا بمقارنة بين هذا الدمار الذى شهده شرق أفريقيا، وبين العمران الذى شهدته شبه جزيرة أيبيريا عندما عبر إليها المسلمون من عرب وبربر، وأقاموا فيها حضارة الأندلس التى ترعاها مبادئ الحب والبر ونهج العلم والعمران وهَدْى نبى الإسلام العظيم. ونرى الآن **كيف أن العالم بدأ يثوب شيئًا فشيئًا إلى مضمون هذه النظرية الإسلامية ـ النظرة المحبة للكون، التى ترى فى مكونات البيئة الطبيعية والحضارة عطايا إلهية يجب على الإنسانية أن تقابلها بالشكر والحمد لا بالنكران والجحود. هذه النظرية المحبة للكون تنبع من محبة الله ورسوله. وليست محبة رسول الله ﷺ فى مجرد الاتباع له، بل المحبة هى أساس الاتباع وباعثه، فلولا المحبة العاطفية فى القلب لما وجد وازع.**

. . . ولا يكفى أن يكون الإنسان منطويًا على نفسه مقتصرًا على عباداته، بل عليه أن يستنفد طاقاته وأوجه نشاطه كلها سعيًا فى سبيل الإسلام. وإذا ما تأملنا فيمن كان حول النبى ﷺ إبان دعوته وجهاده، وجدت أن غالبيتهم العظمى كانوا من الشباب الذين لم يألوا جهدًا فى بذل الطاقة من أجل نصرة الإسلام. وهذه يجب أن تكون هى مزية الشباب فى حياة الإسلام والمسلمين فى كل عصر وأوان، لا سيما وأن مجتمعاتنا الإسلامية الراهنة أكثرها من الشباب.

. . . والقرآن الكريم ليس كتابًا كغيره من الكتب، إنما هو «كتاب حياة» نموذجها المجسد هو حياة النبى ﷺ، وقد استطاع الإسلام كما تَمَثَّله هذا النبى العظيم فى حياته أن يبرهن على أنه وحدة طبيعية اجتمع فيها: «الحب مع القوة. . المثالى مع الواقعى. . الروحى مع المادى. . الدين مع السياسة». وقد أثبت هذا المركَّب المتفجر بالقوة والحيوية أنه قادر على إطلاق طاقة هائلة فى حياة الشعوب التى احتضنته وعاشت به ومن أجله. فقد اكتشفت هذه الشعوب فى لحظة واحدة أن الإسلام يتطابق مع جوهر الحياة الفاضلة الخصبة بكل أبعادها؛ لهذا يجب علينا أن نفهم «وسطية الإسلام» من هذه الناحية، فالموقف الوسط للدين الإسلامى يعبر أصدق تعبير عن الفطرة الإنسانية، ويلقى الضوء على معنى الآية القرآنية الكريمة: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [الروم: ٣٠]. **ولكن ما الذى حدث. وما هو سر الانحطاط الذى يعانى منه المسلمون اليوم؟**

. . . يُجيب الدكتور على عزت بيجوفتش على هذه التساؤلات بقوله: «لقد انشطرت وحدة الإسلام «ثنائية القطب» على أيدى أناس قصروا الإسلام على جانبه الدينى المجرد، فأهدروا وحدته. . . لقد اختزلوا الإسلام إلى دين مجرد، أو تأمل صوفى، فتدهورت أحوال المسلمين؛ لأنه عندما يضعف نشاط المسلمين يهملون دورهم فى هذا العالم ويتوقفون عن التفاعل معه، وتصبح السلطة فى الدولة المسلمة عارية لا تخدم إلا نفسها، ويبدأ الدين الخامل فى جر المجتمع نحو السلبية والتخلف. . .». ويوضح الدكتور عزت بيجوفتش(*): «أن الإسلام يستحيل تطبيقه فى مجتمع متخلف؛ لأنه فى اللحظة التى يتم فيها تطبيق الإسلام يكون المجتمع قد تخلى عن تخلفه ودخل مجال الحضارة. . . وهو أمر مقصود؛ لأن الله خلق الإنسان ليكون خليفته فى عمارة الأرض، ولا يفتأ القرآن يذكر الإنسان بتسخير الله الطبيعة والعالم بأسره للإنسان، ويعلى من شأن قيمة العلم والعمل. . . من هذه الحقيقة وبتركيز الإسلام على القانون والعدالة، يبرهن الإسلام على أنه لا يستهدف الثقافة فقط، وإنما يسعى لبناء حضارة أيضًا. . . وقد يستدل على موقف الإسلام تجاه الحضارة

(*) انظر «مقدمة فى البحث والمنهج» (ص: ٣٢) من الكتاب.

من خلال اهتمامه بالقراءة والكتابة باعتبارهما أقوى محرك للحضارة، فلا غرابة أن يعنى بهما الوحى، فكانت أول ما نزل على النبى ﷺ من آيات القرآن: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]. ويؤكد الدكتور عزت بيجوفتش: «أن كل مفكر إسلامى هو عالم دين، كما أن كل حركة إسلامية صحيحة هى حركة سياسية».

• الأساس الفكرى للنهوض الحضارى

. . . إن نهوض الأمَّة حضاريًا مرهون بقوة عقيدتها الدينية الثابتة فى نفوس أبنائها، ولعل من أنجح الأساليب وأكثر المناهج فعالية فى البناء الحضارى هو الحديث عن قضايا الأمة العقيدية ومبادئها الأخلاقية السامية؛ لأن العقائد والمبادئ تُخَالط وجدان الإنسان وتترسخ فى أعماقه، فتغدو بالتالى القوة الحقيقية المحركة لتاريخ الأمم الاجتماعى والحضارى. ولذلك كانت مناهج الأنبياء[١٥٣] تُركِّز على العقيدة قبل غيرها، والدارس لتاريخ الحضارات يَجدها وقد تأسست على قاعدة عقيدية راسخة، ينتج عنها مجموعة من الفضائل الخلقية التى تسود المجتمع باعتبارها جزءاً من العقيدة ذاتها. وتؤكد العديد من التجارب أن القوانين والنّظم التى يتم فرضها على أفراد المجتمع من أجل النهوض بهم، لا ينتج عنها إلا الفشل عندما يشعر المجتمع أن هذه القوانين والنّظم لا تَصْدُر عن العقيدة الإلهية. هذه النتيجة يؤكدها واقع العالم الإسلامى الراهن، وفشل تجارب النهضة التى لا تنتمى لشريعة الإسلام. وتطرح الحضارة الإسلامية تساؤلاً هامّا حول دور العقيدة فى تكوين الأمم وبناء المجتمعات وقيام الحضارات وازدهارها: **لماذا لم تَقُمْ للعرب حضارة قبل بعثة النبى محمد ﷺ رغم توفر عوامل قيام هذه الحضارة من وحدة الأرض والبيئة. . إلى وحدة العرْق واللغة والثقافة والتاريخ؟** والجواب على هذا التساؤل يؤكد أن الحضارة لم تقم لأن العامل الأساسى والمحرك الأهم لقيامها لم يكن موجوداً، إنها «العقِيدة». فبالرغم من توفر كل عوامل قيام الحضارة العربية قبل الإسلام لم تكن هناك حضارة، بل خلافات وصراعات وحروب وكراهية وأحقاد، وما يَنْتُجُ عن كل ذلك من هلاك ودمار. لكن عندما ظهر الإسلام وجاء نبيه بوحى السماء وعقيدة التوحيد التى تدعو إلى نبذ الشرك والوثنية والتحلى بمكارم الأخلاق كان للعقيدة تأثيرها فى نفوس الأفراد، فيلتزم المسلم بما يؤمن ويعمل، ويعتقد

ويتصرف. وكانت للأسْوة الحسنة للرسول الكريم دورها فى تحرير الناس من عبودية الرغبات والأهواء، فتحولوا من الأثرة والأنانية إلى التسابق فى أعمال الخير والمعروف والإنفاق فى سبيل الله، والجهاد بالنفس والمال لإعلاء كلمة الحق ونشر دين الله، فعَمَّ الإخاء والعدل والتسامح والوفاء، فقامت حضارة يافعة للإسلام. هذه الحضارة وصفها «جوستاف لوبون» فى كتابه «حضارة العرب» بأنها «من أنضر الحضارات التى عرفتها البشرية».

. . . ولبعث الحياة فى الحضارة الإسلامية واسترجاع الدور الحضارى للأمَّة المسلمة يدعو المفكر الإسلامى «سيد قطب»[١٥٤] المسلمين إلى الارتفاع إلى مستوى حضارة العصر. . بالإحاطة بثقافة العصر وحضارته قائلاً: «إننا لا نملك الحكم على ما ينبغى أن نأخُذ من ثقافة العصر وما ينبغى أن نَدَع. . إلا إذا سيطرنا عليها بالعلم والمعرفة. . فمن العلم والمعرفة بحقائق العصر نستمد سلطان الاختيار».

. . . إننا على يقين بأن جهاد الأمَّة فى المرحلة الراهنة يجب أن ينصب على الاهتمام بالعلوم ومعرفة أسرارها لإحراز التقدم وتحقيق النهوض وإثراء كافة مجالات الحياة ـ هذا هو الجهاد الأكبر الذى حَدَّثنا عنه الرسول الكريم؛ لأنه **«جهاد بلا حدود»**. فطلب العلم يُمَثِّل الجهاد الحقيقى الذى تحتاج الأمة إليه الآن. يروى الإمام مسلم فى صحيحه، عن أبى هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا، سهل الله له به طريقًا إلى الجنة» (صحيح مسلم ـ كتاب العلم). وعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من خرج فى طلب العلم، فهو سبيل الله حتى يرجع» رواه الترمذى، وقال: حديث حسن. فالخروج فى طلب العلم كالخروج فى سبيل الله، كما قال الرسول العظيم الذى ارتفع بطلب العلم إلى درجة الفريضة الواجبة، وساوى بينه وبين الجهاد بالنفس والمال فى سبيل الله ـ فطلب العلم النافع الذى ينهض بالأمة ويعلو بشأنها ويؤَمِّن حياة أبنائها ويحفظ لها عقيدتها هو ما نحتاجه الآن. ولماذا لا نعود إلى قيم وتقاليد الحضارة الإسلامية فى عصور الازدهار ـ من إعلاء قيمة العلم ورفع شان العلماء ـ انطلاقًا من مبدأ التعلم من كل حضارة[١٥٥]، والتَّفَتّح على كل ثقافة. . وعلى الرغم من كونها حضارة دينية إلا أنها لم تعرف الانغلاق والعنصرية والتعصب مثل غيرها من الحضارات؛ لأن قيمها نابعة من شريعة الإسلام التى ترفض الاستبداد والجهل والظلم والفساد. وتدعو إلى الحق والعدل والتسامح، وتُحث على التفكير

والعلم. ولم يحدث فى تاريخ الإنسانية أن وُجدَ نظام سياسى أبرز من العلم والعلماء، وجعلهم عنصراً أساسيّا من عناصر الدولة كما حدث فى التراث الإسلامى الذى لا نظير له فى الوجود. . بينما نجد حاضر العالم الإسلامى الراهن فى حالة غياب عن روح وطبيعة هذه الثقافة وقيم تراثها الإيجابى، الأمر الذى يعوق حركتها ويشغلها عن المشاركة فى بناء الحضارة والعمران. . أو تحقيق التقدم والنهوض المنشود.

. . يُحَدِّثنا الداعية الإسلامى الراحل الشيخ محمد الغزالى[١٥٦] عَمَّا يجب أن يَتحلى به الإنسان المسلم من صفات وافتقاده إليها فى الواقع المُتَرَدِّى للمسلمين وتراجعهم فى شئون الدنيا والدين بقوله: «إن تعمير الأرض يحتاج إلى ملكات نضيرة وذكاء حاد ونشاط دءوب. . وعلوم تستكشف القوى والأسرار المخبوءة. . وأيْد مقتدرة تُثيرُ الأرض وتُحْسن ارتفاقها لمصالحها الخاصة. . كما تُحْسن تطويعها لنصرة عقائدها ومبادئها. . وإننى لأشعر بالعار حين أرى شعوبًا تنتسب إلى الإسلام قد ذبلت مواهبها. . وشُلَّتْ سواعدها. . وعاشت على ظهر الأرض ثعالب تأكل فضلات الأسود. . وترنو إلى ما بأيدى الآخرين بعيْنَى عاجز مشدوه. . أو متسول فقير!! هؤلاء الناس لم يعرفوا رسالة الإنسان فى الحياة كما شرحها الإسلام. . ولم يعرفوا مطالب الجهاد لحماية الحق. . فهانوا وهان الحق بهم. .». **فهل تنهض أمة الإسلام بمثل هؤلاء؟!!**

. . . **نعم لقد تَخَلَّى المسلمون عن دورهم الحضارى** وتوقفوا عن المشاركة فى إبداعات العصر وإنجازاته العلمية والمعرفية بعد تخليهم عن قيم العلم والمعرفة واستمرائهم للخرافة والجهل. . فتراجعت أحوالهم فى كافة مجالات الحياة «سياسية وعسكرية واقتصادية وثقافية واجتماعية» على السواء. . وباتوا مجرد مستهلكين لما يُنْتجه غيرهم. . وبالتالى تابعين لهم. . ومن المستحيل ـ فى ظل هذه الأوضاع ـ أن يلحقوا بهم!!!

. . . ويا للمفارقة فى حياة «أمَّةَ الإسلام». . . ففى عصر ازدهار الحضارة الإسلامية كان العلماء من مختلف أنحاء العالم يَفدُونَ إلى الحواضر الإسلامية لتقديم خبراتهم وعلومهم ومعارفهم إلى المسلمين، وكانت أنظارهم وآمالهم معلقة على حاضرة الخلافة الإسلامية «بغداد. . دار السلام آنذاك» حيث يجدون رغد العيش ويلقون الحفاوة والترحيب والإكرام. . أين هذا مما نشاهده الآن، حيث العلماء

المسلمون ومعهم أصحاب الرأى والفكر مطاردون ومضطرون إلى مغادرة أوطانهم بل وهجرها للأبد تجاه مراكز الحضارة والعلم فى عواصم الغرب التى تُوفِّرُ لهم فرص العمل وإمكانات البحث وحرية الرأى . . وتهيئ لهم ما يتطلعون إليه من تقدير وتكريم . . بل وأين هى **«بغداد»** نفسها اليوم وقد تحولت فى ظل الاحتلال من دار السلام إلى دار العنف والدمار؟

. . . لقد انفردت شريعة الإسلام بتكريم العلم والاحتفاء بالعلماء ﴿ . .**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ**. . . ﴾ [الزمر : ٩] بينما نجد المسلمين اليوم لا يهتمون إلا بتوافه الأمور التى تُؤخِّر ولا تُقَدِّم . . ويتركون إبداعات العلم وإنجازاته للآخرين قانعين فقط بدور المستهلكين الشرهين . . وبدلاً من الارتقاء بالعلم وتبجيل العلماء نجدهم منخرطين فى «تقديس السلطة» و«تكديس الثروة» فسقطوا فى فخ الاستبداد وهاوية الفساد . . بينما نجد الأمم التى أفسحت المجال للعلم والعلماء والفكر والتفكير هى التى تحررت من أسْر التخلف واستبدلت التبعية بالندِّية فى التعامل مع القوى الدولية . . . لقد تخلينا عن الاهتمام بالعلم، ونسينا الحكمة من وراء **«اطلبوا العلم ولو فى الصين» . . . . فهل نعتبر بما يفعله الصينيون؟ . . أم نكتفى باستهلاك ما ينتجون؟!!**

* * *